لن تبيع النفس قبل أن تملكها

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٩/١٢/٢٥م

إذا أردنا أن نختصر التكليف الرباني للإنسان في هذه الحياة بتزكية نفسه وامتلاك زمامها فإننا لا نكون في هذا مُفْرِطين، لأن تزكية النفس وضبطَها ينتج سلوكًا متوازنًا في الكون، وينتج عدالة في البشرية، وحينما يفقد الإنسان تزكية نفسه وضبطَها وامتلاكَ زمامها، تنتشر الفوضى، ويحصل الاضطراب الذي يعيش العالم اليوم نصيبًا كبيرًا منه.

وكلُّ شيء يمكن أن يُقاد من ظاهره إلاّ الإنسان، فإنه لا يقاد إلا من باطنه، ومن هنا كان إصلاح البشرية يعني إصلاح نفوسها، وحينما تنسى البشرية قضية النفوس بتهذيبها وضبط زمامها فلابد أن السلوك سيكون عبثيًّا وعشوائيًّا.

وهكذا خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان أمام امتحان، فالله خلق النفس ووصفها بأنها كثيرة الأمر:

{إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ} [يوسف: ٥٣] تأمر بالسوء.

والمطلوب في نهاية التكليف أن يتحول صاحبُها إلى آمرٍ بدلاً من أن يكون مأمورًا، وحينما تنقلب هذه المعادلة، فبدلاً من أن تكون مأمورًا من نفسك تصير آمرًا وناهيًا لها، عند ذلك تصل إلى غاية التربية والتزكية.

فالنفس أمّارة، تنهاك عن الخير وأسبابه وتتثاقل عنه، وتأمر بالسوء وأسبابه وتندفع إليه، والمطلوب منك أن تكون الآمر لها والناهي.

ومن العجيب أن الله تبارك وتعالى وصف النفس بالأمارة، أي أنها تكثر إصدار الأوامر، ولكنه أكّد على جانب النهي من صاحبها، مع أنها تأمر وتنهى، ومع أن المطلوب من صاحبها أن يأمر وينهى.

واقرؤوا على سبيل المثال قوله تعالى:

{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٤٠-٤١]

فنبّه ربّنا سبحانه وتعالى إلى أحد الجانبين في النفس (وهو الأمر)، ونبه إلى جانب آخر في صاحبها (وهو النهي)، مع أن المطلوب إنما هو الأمر والنهي معها، ولكنه تأكيد، مع أن صاحب النفس مطلوب منه أن ينهاها، وحينما ينهاها فإنها تنـــزجر عن المحظورات، لأنها كثيرة الاندفاع إلى شهواتها ورغباتها ومحظوراتها، وحينما ينهاها فإنها تتوقف وتنـــزجر عن المحظور.

المأمورات كثيرة، لكن امتحان الإنسان إنما هو في المحظورات، وارجعوا إلى توجيه النبي صلى الله عليه وسلم حينما كان يقول لأمته: (مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ).

فتكليف الإنسان بغاياته الكبرى، وامتحانه في غايته الخطيرة الكبرى إنما هي في النهي.

ولذلك قال: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}

فالنفس أمّارة، وصاحبها ناهٍ ينهاها عن طريق السوء.

هكذا ينبغي أن يُنظر إلى الأمرين: إلى أمر النفس ونهيها، وإلى أمر الإنسان ونهيه.

والسؤال الذي يختصر قضية التزكية هو أن يسأل الإنسان نفسه بصدق:

هل أنا الآمر أم المأمور؟ وهل أنا الناهي أم الذي تنهاه نفسه عن الخيرات؟

وهذه القضية ينبغي أن نتوقف عندها قليلاً، فقد كنت أقرأ في كتاب الله كثيرًا تكرير لفظة "الحكم".

فنجد رسل الله الذين آتاهم ما آتاهم من الكرامة والاختصاص وهبًا، نجد أنهم كانوا تعليمًا لنا يطلبون من الله تعالى الحكم والعلم، وفي بعض الأحيان كان الطلب يتوجه إلى الحكم، وربما يكون طلب العلم متضمَّنًا في ذلك السؤال الأول الذي هو طلب الحكم.

وعلى سبيل المثال نقرأ قوله تعالى وهو يشير إلى الحكم والعلم في حقّ سيدنا لوط عليه الصلاة السلام الذي كان في بيئة قذرة، ويحيط به قوم يعملون أبشع الخبائث، يقول سبحانه:

{وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ} [الأنبياء: ٧٤]

إنه سبحانه وتعالى يظهر لنا صورةَ داعيةٍ ورجلٍ طاهر، فيصفه بوصفين اثنين: الحكم والعلم، و لم يُعهد في سيرة لوط عليه الصلاة والسلام أنه كان حاكم قومه بالمعنى السياسي، فكيف يمكن لنا أن نفهم مفهوم الحكم؟

وإذا رددنا مفهوم الحكم إلى النبوة كما ذهب أكثر المفسرين فإننا نجد بعض الآيات تتحدث عن رسولٍ نبيٍّ يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يهب له حكمًا.

فنقرأ على سبيل المثال في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ} وهو رسول ونبيّ يدعو إلى الله.

{قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ، رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [الشعراء: ٦٩-٨٣].

فإنه سبحانه وتعالى جعل امتلاك الحكم مقدمةً للصلاح، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يطلب ذلك من الله سبحانه وتعالى وهو رسول نبيّ، فكان طلبه للحكم مقدمة للصلاح.

وبعد ذلك نجد يوسف عليه الصلاة والسلام الذي مر بمِحَنٍ كثيرة، لكنْ من أشد تلك المحن المحنةُ التي وقف فيها أمام رغبة النفس البشرية، التي تجد أمامها حظوة كبيرة، وذلك حينما وقف أمام امرأة العزيز، وهو الشاب الفتيّ، وهي ذات المنصب والجمال، وتدعوه إلى نفسها، لكنه بهذا الموقف كان مالكًا لزمام نفسه مستعينًا بالله تبارك وتعالى.

واقرؤوا قوله تعالى وهو يصف هذا الحدث الكبير:

{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف: ٢٢-٢٣].

وهكذا نبّهنا ربّنا سبحانه وتعالى إلى نتيجة الحكم والعلم الذي هو الثبات عند نـــزاع النفس.

فهي النتيجة التي يصل إليها أهل الإحسان، والنتيجة التي تثبت بها أقدامُ أهل الإحسان في مقامات التمكين.

وأمام هذه المشاهد.. ونحن نرى صورة الطاهر لوط عليه الصلاة والسلام، ونرى ذك الموحّد الذي كان إمامَ أهل التوحيد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ينبّهنا إلى أن امتلاك الحكم هو مقدمة الصلاح، ونرى بعد ذلك ذلك النبيّ الرسول الطاهر العفيف يوسف عليه الصلاة والسلام، وكيف ينبّهنا القرآن إلى أن وجود الحكم والعلم فيه قاداه إلى الثبات أمام مصارعة النفس، وأمام رغبتها... يمكن لنا أن نقرأ الحكم في هذه السياقات بأنه امتلاك الإنسان لزمام نفسه، بأن يصبح آمرًا وناهيًا لنفسه، وأن يصبح مالكًا لزمامها وضابطًا لأمورها، وينبغي أن يقترن ذلك مع العلم حتى لا ينهى نفسه أو يأمرها بأمر يخالف العلم، لأنه لا يأمر نفسه ولا ينهاها إلا بما يتوافق مع العلم الذي مصدره الله، فهو الذي علّم الإنسان، وعلّم آدم..

وعندما يصبح الإنسان مالكًا نفسه، عند ذلك يكون قد دخل وصف التزكية ودخل وصف النفس المزكّاة.

ولئن كان أهل الفقه يقولون: **"ليس لك أن تبيع ما لا تملك"**، فأقول: إن الله سبحانه وتعالى طلب منا أن نبيع نفوسنا له، فكيف نبيعها له ونحن لا نملكها؟

إذًا: هناك مُقدَّر ينبغي أن نتنبّه له، وهو: املكوا نفوسكم أولاً ثم بيعوها لله، ولن تقدروا على بيع نفوسكم لله حتى تملكوها.

قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ} [التوبة: ١١١]

لكن كيف يمكن لك أيها الإنسان الذي تتلاعب نفسُك بك، فتأمرك وتنهاك، فتكون طَوعَ بنانها، والذي تلعب بك الأهواء... أن تقف بعد ذلك موقفًا تقول فيه: أبيع نفسي؟

الذين باعوا نفوسهم لله قومٌ استطاعوا أن يملكوا نفوسهم.

وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حين باعوا نفوسهم لله ملكوها، فمثلاً حينما نـــزلت آية تحريم الخمر تحولت المدينة إلى أنهار من الخمر، فأريق كل إناء، ولم يحتفظ واحدٌ منهم بخمر معتقة، وكانت لها قيمة مالية كبيرة، لكنهم لم يترددوا لحظة في ذلك حين سمعوا أن الله حرم الخمر.

واليوم تضع المدارس التربوية في الغرب البعدَ الزمني لتخلص الكحولي من كحوليته ستةَ أشهر حدًّا أدنى.

فالذي يشرب الخمر لا يستطيع أن يتركها كحد أدنى في مدارس الغرب التربوية قبل ستة أشهر، ويدخل في مَصحات وبرامج... فكيف استطاع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم بثوانٍ أن يضعوا الخمر وراء نفوسهم؟

إنهم ملكوا نفوسهم.

ولماذا سمعت الأنصاريات أمر الله بالحجاب الشرعيّ فنـــزلْن إلى الطرقات كأنهن الغرابيب يضعن الخُمُر على رؤوسهن؟

لأن الله تعالى حرّم أن تُرى شعورهن، فلم يحتج الأمر إلى محاضرات كثيرة وتنظيرات وبيانٍ لفلسفة الحجاب وآثاره التربوية والاجتماعية كما نفعل اليوم... إنما نـــزل أمر الله فكان التطبيق.

وهذا كله راجعٌ لوصف الحكم، ولوصف امتلاك زمام النفس.

فالمهزوم أمام نفسه مهزومٌ أمام العالم كلّه، وما أولئك الذين تراهم في الأرض يُباعون ويُشترَون أُجَراءَ للشيطان إلا لأنهم مهزومون أمام نفوسهم، فلمّا هُزموا أمام نفوسهم تحولوا إلى أدوات رخيصة، يباعون ويشترون.

وما أيسر اليوم أن يجد عدوُّنا من الأجراء ما يشاء، ويسخِّرهم لمصالحه وتنفيذ مخططاته.

لماذا؟ لأنهم لا يملكون نفوسهم، فلو أنهم ملكوا نفوسهم ثم باعوها لله تبارك وتعالى لا يمكن لهم أبدًا أن يرخصوا تلك النفوس ويبيعوها لغير الله.

ورضي الله عنك يا خُبيب وأنت تقف بين المشركين يصلبونك، وأنت تقول الشعر منبسِطَ الأسارير بَاسمَ الوجه، وتقول:

ولســـت أبـــالي حـــين أُقتـــل مســـلمًا على أيِّ جنبٍ كـــان في الله مضـــجعي
وذلـــك في ذات الإلـــه وإن يشـــأ يـــبارِك علـــى أوصـــال شِـــلوٍ ممـــزَّعِ

هذه هي مدرسة التزكية التي ينبغي علينا أن نعتني بها في أوساط شبابنا، وفي أوساط فتياتنا، وفي أوساط نسائنا، وفي أوساط رجالنا، وفي أوساط مجتمعاتنا التي أكلتها المادة ونهشتها الشهوات...

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.